ارشيف ابو حسن اكوج العاملي ـ عنقون جبل عامل

المقاومة العاملية في النصف الأول من القرن التاسع عشر

بقلم: د. محمد نور الدين

بلغ العامليون ذروة بأسهم في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، في عهد الشيخ ناصيف النصار الذي دخل في تحالف ثنائي مع حاكم عكا وبلاد صفد الشيخ ضاهر العمر، وتمكنا من المحافظة على استقلال بلادهما بوجه دسائس ومكائد الباب بشخص ولاة دمشق وصيدا وأمراء جبل الشوف. إلا أن مقتل ضاهر العمر عام ١٧٧٦ ونجاح والي عكا الجديد احمد باشا الجزار في احتلال جبل عامل بعد قتله لناصيف النصار، فتح صفحة جديدة في تاريخ البلاد العاملية تجمع بين القهر والثورة والتشرد والتصميم على انتزاع الاستقلال مجدداً. فبدأت فرق المقاومة التي عرفت بالطيّاحة بمهاجمة عمال وعملاء الجزار. وإذا كانت حرب العصابات هذه لم تحقق النتيجة المبتغاة، إلا أن من أهم فوائدها إبقاء جذوة المقاومة حيّة بانتظار الأيدي التي ستحملها من جديد.

عام ١٨٠٤ توفي باشا عكا الجزار، فتلقف العامليون الفرصة لمحاولة العودة إلى حكم بلادهم بأنفسهم، فتوسّل العديد منهم ممن كانوا قد لجأوا سابقاً إلى عكار كلًّا من الأمير بشير الشهابي الثاني والشيخ بشير جنبلاط لهذه الغاية. ولم يرد هذان الأخيران الطلب فأرسلا الرجال مع العامليين «و لما بلغ الدولة الذين في بلاد المتاولة قدومهم، هربوا إلى صور»[1]. لكن متسلم الدولة في حوران محمد علي ابن الونة حضر إلى عكا بعد وفاة الجزار واصطدم بالدروز والمتاولة وهزمهم وقتل منهم ما يزيد على ثلاثمائة رجل[2]. لم تثن الهزيمة من عزيمة

(١) لبنان في عهد الأمراء الشهابيين، حيدر الشهابي ٢ / ٤١٢ ـ ٤١٣.

(٢) المصدر السابق. كذلك انظر: الدر المرصوف في تاريخ الشوف، حنانيا المنير، مجلة المشرق ٥١ / ٤٧٠.

العامليين ، كما لم يمكنهم تعيين سليمان باشا واليا جديدا بعد الجزار على عكا . فثاروا واستطاعوا أن يبسطوا نفوذهم على سائر انحاء جبل عامل وحتى النواحي المتاخمة له جنوباً . لكن سليمان باشا الذي كان يلزمه بعض الوقت لتوطيد سلطته الجديدة وضع نفسه أمام امتحان قوة جديد مع جيرانه الاقوياء وجرّد عليهم عام ١٨٠٥ حملة وتمكن من « ضبط القلع وهربت مشايخ المتاولة وخربت البلاد ونزح كل من بها »[٣] .

رغم انتصاره ، كان سليمان باشا يدرك أن عمليات القمع والاخضاع والتشريد لن تجلب له الطمأنينة والاستقرار ، خاصة أن الثوار لم يتوقفوا عن ممارسة نشاطهم . وهكذا اضطر سليمان باشا إلى تغيير استراتيجيته مع جبل عامل ، لا لكونه « عادلاً حليماً رفوقاً » و« سلس القيادة لين العريكة »[٤] كما يصوره البعض ، بل رضوخاً للأمر الواقع والذي ساعده على « تفهمه » مستشاروه الذين « كان أول أمرهم أن صانعوا أولاد العشاير وأرضوهم وعوضوهم عن املاكهم المغصوبة التي اغتصبها وردّوهم إلى أوطانهم بعد التشريد »[٥] . وهذا ما حصل حين تساكن سليمان باشا مع الثورة العاملية وأعاد المشرّدين والفارّين منهم إلى ديارهم وأرجع لهم أملاكهم وعوضهم عما صادره الجزار منهم ولا سيما فيما خص العائلات الاقطاعية الرئيسية : آل الصغير ، آل صعب ، آل منكر . وهو ما تؤكده بعض الوثائق التي نورد احداها وهي بتاريخ ٢٩ رمضان ١٢٢٠هـ . وموقعة من « الحاج سليمان والي صيدا ومتصرف لواء غزة ويافا » وموجهة إلى « قدوة الأماثل والاقران متسلمنا في تبنين وهونين الحاج ابراهيم زيد قدره » وفيها[٦] :

« بعد السلام التام المنهي إليك حضر لهذا الطرف افتخار المشايخ المكرمين الشيخ محمد الناصيف وحصل على صفو الخاطر الكامل من جهتنا . والآن قد سمحنا للمذكور في قرية الطيبة يتصرف بموسمها هذا العام وفي العام المقبل يمشيها مطلقاً في كيسه ويستغلها من غير ميري . فلا تقارشوه بالقيمة المذكورة . وقد أمرنا للمذكور بإنعامه في كل شهر خمسمائة غرش تدفعوهم له من طرفكم . وابتداء ذلك من الشهر الداخل إلى أن يكون طلع الموسم القادم تنقطع الشهرية المذكورة . وكذلك أمرنا له بعشر غراير حنطة وعشر غراير شعير تدفعوهم له من طرفكم . وكذلك سمحنا إلى أخيه الشيخ نصار الناصيف وإلى أسعد الخليل

---

(٣) الشهابي ٢ / ٤٣٢ - ٤٣٣ .

(٤) المصدر السابق ٣ / ٦٤٥ . وتاريخ جبل عامل ، محمد جابر آل صفا ص ١٤٠

(٥) جبل عامل في قرنين ، الشيخ علي سبيتي ، مجلة العرفان ٥ / ٢٤ .

(٦) الوثيقة نشرها الشيخ سليمان ظاهر في العرفان ٣٧ / ٣٧٧ - ٣٧٨ .

وإلى هادي المقبل في قرية « طير فلسيه » مطلقاً يتصرفوا بها بهذا العام ويمشوها على كيسهم في المقبل . وأمرنا للمذكورين بإنعام شهرية إلى المذكورين تسعين غرش في كل شهر ابتداها غرة الشهر الداخل . وحين طلوع الخير تنقطع الشهرية المذكورة . فهذا المنوال مشوا المشايخ المذكورين عليه ولا يصير منكم قصور في مساعدتهم ومراجعاتهم وتركين أحوالهم على ذلك والسلام » . وعلى هامش الوثيقة ما يلي « مزرعة عدشيت تابعة للطيبة في تصريف الشيخ محمد المذكور ، اعلموا ذلك » .

بعد سلسلة الخطوات « المعيشية » هذه ، بدأ والي عكا خطوات سياسية تمثّل أولها بتعيين الشيخ علي الفارس عميد آل صعب حاكماً عاماً في قلعة تبنين . وفي الحقيقة لم يقبل الشيخ علي بهذا المنصب إلا بعد اتفاقه مع الثوار العامليين بالسعي لإجلاء جيش الوالي من الاتراك والارناؤوط والأكراد عن البلاد[7] . حيث أن سليمان باشا « أبقى قسماً كبيراً في مرجعيون على مقربة من جبل عامل نظراً لغليان أهله آنئذ واخلالهم بالأمن »[8] .

لم يُقبل العامليون على التجربة الجديدة مع سليمان باشا إلا بحذر . فتاريخ تعاملهم مع الولاة الاتراك حافل بالنقض والغدر من جانب الأخيرين . لذا رفضوا الدخول في مفاوضات مباشرة مع والي عكا ، إلا أن الأمير بشير الشهابي توسط في المسألة . وتولى الشيخ فارس الناصيف ابن ناصيف النصار قيادة المفاوضات عن الجانب العاملي يساعده كتخدا (مساعده) الحاج حسن الشيت ، وتوصل الفريقان إلى اتفاق ، صادق عليه الوالي سليمان باشا ومعتمد الباب العالي راغب افندي وينص على ما يلي[9] :

١ ـ العفو العام عن عموم الثائرين .

٢ ـ يعطى لهم اقليم الشومر ملكاً لهم ولذريتهم مقسوماً بالتساوي بدلاً عن املاكهم التي ضبطتها الدولة مرفوعة القدم ممنوعة القلم من دون معارض ولا منازع كما ذكر في البيولريدي المنشور الرسمي .

٣ ـ أن لا يكون دخل في حكم البلاد ولا سلطة لموظفي الدولة عليهم وانما يرجعون في امورهم وفصل الخلاف الذي يقع بينهم إلى شيخ المشايخ الشيخ فارس الناصيف . فهو يمثلهم تجاه الحكومة وبه تنحصر المخابرات وعليه تعود المسؤولية .

---

(٧) صفا ١٤٠ .

(٨) بشير بين السلطان والعزيز ، أسد رستم ١ / ١٩ .

(٩) انظر : صفا ١٤١ .

وبعد انتهاء الاجتماع وتوقيع الاتفاق ، أكرم الوالي سليمان باشا الشيخ فارس الناصيف بخمسة آلاف قرش وفروة من السمور على أنه شيخ المشايخ كما أمر الوالي باتخاذ قرية الزرارية مقراً لبيت الرئاسة العاملي على أن تبنى فيها دار على نفقة الدولة مع تعيين مئتي كيس للدار الرئاسية تدفع كل سنة من خزينة عكا وذخائر مرجعيون .

كما يتبين لنا فإن الاتفاق المذكور هو ذروة ثمار المقاومة التي شهدها جبل عامل ضد التدخل الخارجي في شؤونه . وقد أعاد الاتفاق إلى الجبل العاملي حكمه الذاتي ونظم العلاقة مع الباب العالي من خلال والي عكا عبر تقليد هذا الأخير خلعة المشيخة لفارس ناصيف كما ورد أعلاه . وكان من النتائج المثمرة لهذا الاتفاق ، استعادة الاملاك المصادرة والتعويض على أصحابها . ومن جراء كل ذلك « هدأت الحال أيام سليمان باشا وعمرت البلاد عمرانا زائدا ونمت نموا فائقا فعمرت الأبنية وغرست الأشجار وسار سيرة حسنة »[١٠] .

استتب الأمر في جبل عامل والمناطق الأخرى حيث كان سليمان باشا « بكل راحة ومحبة يستورد الميرِ المرتبة له على جبل الدروز وبلاد المتاولة وبلاد صفد وغيرهم من جميع الايالات الذي بيده »[١١] . وانتقلت العلاقة بين جبل عامل ووالي عكا من المستوى الضرائبي إلى التحالف العسكري . فشارك العامليون في حروب سليمان باشا ضد خصومه . يكتب الركيني عن احداث العام ١٢٢٥هـ[١٢] : « وفي آخر الشهر اجى (جاء) سليمان باشا إلى الشام ومعه الدروز والمتاولة .وصار بينه وبين يوسف باشه (والي دمشق) وقعة . وكان الوجه إلى سليمان باشا . وقتل احمد بن عباس المحمد من المتاولة ومعه اثنين اخوة أولاد متيرك . وانهزم يوسف باشا وعاد سليمان باشا إلى الشام » .

استمرت العلاقات الودية بين سليمان باشا والعامليين ردحاً طويلاً من الزمن . ومن مظاهر هذا الود والتعاون أنه عام ١٢٣٠هـ / ١٨١٤م . توفي علي باشا الخزندار كتخدا سليمان باشا في عكا فأراد الأمير بشير المسير إليه لتعزيته . فأمر سليمان باشا جميع متسلميه أن يلاقوا الامير بشير على الطريق حيث يمرّ ويقدموا له كل اكرام . وكان للعامليين النصيب الأوفر من هذه الواجبات والمراسيم نظراً لوقوع بلادهم على معظم الطريق الذي سيمر به الامير بشير . يذكر حيدر شهاب[١٣] .

---

(١٠) السبيتي ٥ / ٢٤ .

(١١) الشهابي ٣ / ٥٤٤ .

(١٢) جبل عامل في قرن ، حيدر ركيني ، العرفان ٢٩ / ٦٨١ .

(١٣) الشهابي ٣ / ٦٠٥ - ٦٠٦ .

« وعند وصوله (الأمير بشير) إلى جسر القاسمية التقوا به ابراهيم آغا متسلم قلعة هونين وبلاد المتاولة .وقدموا له الزخاير وساروا إلى ملاقاته ماشيين على الأقدام إلى قاطع الجسر ورجعوا قدّامه عاشيين إلى الخيام . وقدّم له ابراهيم آغا راسين من الخيل وسار معه إلى اطراف البلاد ثم ودعه ورجع إلى محله (. . .) وعند وصول الأمير إلى مدينة صور التقى به متسلم صور وأكابر البلد ودخلوا قدامه بعراضه . وعند الصباح سار الأمير وسار معه المتسلم إلى خارج البلد وقدم راس من الخيل . ثم التقوا به أولاد الشيخ ناصيف النصار وكلفوه إلى محلاتهم . وقدموا له الزخاير وراسين من الخيل » .

على هذا المنوال الهادىء والتعاوني انهى سليمان باشا ولايته عام ١٢٣٥هـ . / ١٨١٩م . عندما توفي وخلفه عبد الله باشا في ولاية عكا .

حاول الوالي الجديد متابعة سياسة سلفه مع العامليين، على الأقل إلى حين تثبيت وضعه الجديد والاحاطة بالشاردات والخفايا ، فأرسل بعد يوم واحد من وفاة سليمان باشا مرسوماً إلى الشيخ فارس ابن الشيخ ناصيف النصار يطلب الود ويذكر بالواجبات(١٤) :

« جناب افتخار المشايخ المكرمين الشيخ فارس حرسه الله تعالى .

غب ابلاغ التحية ومزيد الأشواق الوافرة الوفية إلى مشاهدتكم في كل خير وعافية ونعمة جزيلة وافية دمتم بها سالمين . المبدي لخوتكم انه بتقدير ممتنع التغيير نهار أمس الاثنين عند المساء انتقل بالوفاة إلى رحمته تعالى افندينا المرحوم المبرور المغفور له الحاج سليمان باشا طاب ثراه . فلا حول ولا قوة إلا بالله إنا لله وإنا إليه راجعون . سبحان الحي الباقي الذي لا يموت . فلهذا بادرنا في الحال بالتحرير إلى العتبة العلية السلطانية بالتضرع والالتماس بالمرحمة والشفقة على عدم إطفاء نور أوجاقنا فنسأله تعالى الإعانة والتوفيق وإن شاء الرحمن قريبا تحضر لنا بشائر الاحسان من جناب الدولة العلية . وهذا الذي جرى بتقدير العزيز الحكيم فالمراد من خوتكم تكونوا معنا على العهد القديم وتكونوا فاتحين عينكم لحفظ الطرقات وراحة أبناء السبيل ومنع جماعتكم من التعديات والأذية للمخلوقات . لأنه هذا الوقت اجراء الصداقة وإظهار حسن الاستقامة فيلزم من همتكم إظهار مكارم الصداقة والاستقامة التامة بهذا الاثناء كما هو ملحوظ بكم وإن شاء الله تعالى ما تشاهدوا منا إلا كل ما يسرّ خاطركم ويقرّ ناظركم من سائر الوجوه ودائماً لا تمنعوا أخباركم من طرفنا فيما يقتضي تحريره ودمتم والسلام » .

---

(١٤) الوثيقة نشرها الشيخ سليمان ظاهر ، العرفان ٣٧ / ٤٨٦ - ٤٨٧ .

إلا أن هذا المرسوم لم يدع الأحوال تستمر كما كانت عليه سالفاً ، فعبد الله باشا كان « شابا غريراً . . . . استبد بالأمر دونه قوم اصطنعتهم امه من أهل بلاد عكا . . . . وتركوه في لهوه وشبابه . فاستعمل العنف في الرعية وغرم الأهالي زيادات على المرتبات »[١٥] .

انعكست هذه السياسة الجديدة خوفاً وتشككا عند العامليين ، لا سيما عندما عرض عليهم الوالي صفقة جديدة معدلة للاتفاق السابق مع سليمان باشا . وكما في المرة السابقة فقد كان للأمير بشير الشهابي الثاني دوراً هاماً في إزالة الريبة العاملية تجاه عبد الله باشا واقناعهم بقبول العرض الجديد الذي يدل على ادراك باشا عكا لحقائق الأمور وعدم قدرته ـ كما ليس من مصلحته ـ اخضاع جبل عامل بالقوة ورفع يد حكامه عنه . وهكذا وقّع الاتفاق الجديد الذي ينص على[١٦] :

١ ـ ارجاع حكم بلاد جبل عام (بلاد الشومر وبلاد الشقيف) إلى مشايخه .

٢ ـ رفع المتسلمين عنها .

٣ ـ يجعل عليهم رابطة لكي يوردوا الأموال التي كانت تتورد عن يد المسلّمين الذين من قبل الوزير .

٤ ـ يترك لهم خمسين ألف قرش كل عام ومئة غرارة شعير علائف لخيولهم .

٥ ـ اعطاؤ هم بلاد مرجعيون .

٦ ـ تامين ألفي نفر خيل وزلم عسكر مقيمين إلى أي وقت لزموا للوزير .

وأرسل العامليون الحاج حسن شيت ساعد الشيخ فارس الناصيف إلى الوالي عبد الله باشا « يطلبوا منه ما أمر به وأن يحرر لهم صك بعدم التغيير بما وعد . فحرر لهم الباشا ان لا يقع معهم في الزمان انتقاض ووجه لهم الخلع كما كانت عادة آبايهم (آبائهم) من والي صيدا في قديم الزمان »[١٧] . وكان ذلك عام ١٢٣٧ هـ / ١٨٢١م .

بهذا الاتفاق تمكن العامليون من المحافظة على ادارة شؤونهم الداخلية بأنفسهم وإقامة علاقات جيدة مع والي عكا بحيث أنه كان أحياناً يقوم بنفسه بزيارات إلى وجهاء جبل عامل

---

(١٥) السبيتي ٥ / ٢٤ .

(١٦) الشهابي ٣ / ٧١٠ .

(١٧) المصدر السابق .

مصحوباً بمثات الخيالة . كما كان يستضيف في قصر البهجة في عكا العديد من الزعماء العامليين[١٨] .

وكما كانت العلاقات مع الوالي السابق سليمان باشا ، فقد ساهم العامليون كذلك في المعارك التي كان يخوضها الوالي الجديد عبد الله باشا . ففي نفس العام الذي وقع فيه الاتفاق اعلاه ، تعاظم الخلاف بين عبد الله باشا ودرويش باشا والي دمشق . فالتقى الفريقان في موقعتي جسر بنات يعقوب والمزي وكان العامليون إلى جانب عبد الله باشا . يكتب حيدر الركيني[١٩] : « وفي شهر رجب صارت بين عبد الله باشا وبين باشت الشام درويش باشا وقعة على جسر بنات يعقوب وكانت الغلبي على عسكر باشت الشام واخذوا منه الهاون والمدافع وكانوا المتاولي مع عبد الله باشا . وفي أول شهر رمضان انتقل عسكر عبد الله باشا والمير بشير بالدروز والمتاولي بأرض المزي وصارت بينهم وقعة في شهر رمضان وأخذوا مدفعين من عسكر باشت الشام والتجا باشت الشام إلى القلعة وما كان يطلع إليهم » .

وفي حرب البشيرين الشهابي والجنبلاطي ساعد العامليون عبد الله باشا الذي وقف إلى جانب الأول فأمدوه بما يلزم وسائل النقل وغيرها . يكتب حيدر شهاب[٢٠] : « أما عبد الله باشا لم يزل بازدياد الاعانة في ايراد العساكر والزخاير يوماً فيوماً . وجمع كل ما كان في بلاد المتاولة من جمال وكدش ودواب لأجل نقل الزخاير من مدينة صيدا إلى دير القمر » .

وما زال العامليون في استقرارهم وولائهم لعبد الله باشا إلى أن كان العام ١٨٣٢ حيث سقطت بلاد الشام بيد المصريين الذين قسّموها إلى مقاطعات ادارية جديدة . وكان نصيب جبل عامل أن أُلحق بجبل لبنان وحاكمه الأمير بشير الشهابي .

كان ضم جبل عامل للأمير الشهابي يعني فقدانه لاستقلاله الداخلي ، كما شكل ذلك فرصة للأمير بشير لتعزيز نفوذه الاقطاعي في سياق التنافس الاقطاعي الذي يسود المقاطعات التركية . فعمل بشير الشهابي على تضييق الخناق وعلى نهب واستغلال العامليين وزعمائهم ،

---

(١٨) انظر الوثيقة التي نشرناها كملحق لمقالتنا عن المقاومة العاملية ضد الجزار ، مجلة العرفان المجلد ٧٣ ، العدد الثالث ، ١٩٨٥ ، وما تشير إليه حول العلاقات الودية بين عبد الله باشا والي عكا والشيخ علي الزين أحد وجهاء جبل عامل .

(١٩) الركيني ٢٩ / ٦٨٣ .

(٢٠) الشهابي ٣ / ٧٦٣ .

مدعوماً بالحكام المصريين الذين وجدوا في بشير شهاب تابعهم المفضل فعملوا على دعم سلطته وأركان نظامه . ولم يخرج سكان الجبل العاملي عن تقاليدهم الموروثة والطبيعية في مواجهة الظلم . فما أن اطلّ العام ١٨٣٦ حتى بدأت الثورة في كل الأنحاء العاملية وكان على رأس الثورة حسين شبيب ابن الشيخ فارس الناصيف واخوه محمد علي . وكانت مراكز الحكومة وعمالها هدفاً مباشراً للثوار . وفي أوائل تشرين الثاني ١٨٣٩ ، أي بعد ثلاث سنوات من اندلاعها ، بلغت الثورة ذروة تصاعدها ورفعت المطالب الآتية(٢١) :

١ ـ رفع المتسلمين من البلاد .

٢ ـ اعادة الحكم إلى زعماء البلاد العامليين وعميدهم حسين شبيب كما كانت الحالة في عهد والده .

٣ ـ تعهد زعيم الثورة بدفع الأموال وتقديم الغلال وبصيانة الأمن والعدل في بلاده في ظل الحكومة المصرية .

تعتبر هذه المطالب نسخة طبق الأصل عن الاتفاق الذي كان سارياً في عهد عبد الله باشا . وهذا أمر طبيعي فزعيم الثورة حسين شبيب لم يكن يبغي ـ ولا يستطيع ـ تجاوز « الحالة العامة » في البلاد الشامية . فهو على استعداد لدفع الضرائب والولاء للحكم المصري ، مقابل ابعاد المتسلمين الغرباء وأن يكون العامليون حكام أنفسهم . إلا أن هذه المطالب « اللينة » نسبياً لم تحظ بحماس المصريين الذين لم يكونوا ليرغبوا في ابقاء الأوضاع على ما كانت عليه أيام الاتراك من « عصيانات » مغلفة بشعار الحكم الذاتي والولاء الاسمي للدولة عن طريق دفع الضرائب وبعض المترتبات الأخرى . فرفض المصريون الاقتراحات . وكان من الطبيعي أن يواصل حسين شبيب الثورة . وجمع حوله حوالي ستماية نفر ، أربعة وخمسون منهم مسلحون بالبنادق ومئة وخمسون بسلاح بسيط كالفرد والطبنجة والخنجر واليطقان والعصي . وما ان وصل هؤلاء عند حسين شبيب حتى « قويت براعته وصار يتلفظ بأقوال خارجة عن الطريقة بقوله إذا كان لا يجاب إلى سؤاله فإنه سيزداد شقاوة حتى يسري ضرره إلى النواحي الموجود بها »(٢٢) .

وجد ابراهيم باشا المصري نفسه أمام خطر الثورة العاملية المتزايد ، فأوعز إلى محمد

---

(٢١) رستم ١٧٢

(٢٢) المصدر السابق

شريف باشا والي الشام أن يطلب معونة الأمير بشير ومعونة الشيخ محمود عبد الهادي مدير إيالة صيدا . فما كان من الأمير بشير إلا أن لبى الدعوة وبسرعة وأرسل ولده الأمير مجيد وكان « شابا مترفاً غريراً »[٢٣] على رأس قوة من خمسمائة نفر إلى جبل عامل . فتوجه إلى النبطية ومنها إلى ميس فيارون حيث دارت مناوشات مع الثوار . ولما لم يحسم الأمير مجيد المعارك عمد إلى التنكيل بأهالي الثوار مما حدا ببعض وجهاء البلاد إلى محاولة ايقاف الثورة مقابل الحفاظ على حياة وكرامة زعمائها . إلا أن حسين شبيب واخوه محمد علي رفضا ذلك وفضلا الالتجاء إلى حوران استعدادا للمرحلة الجديدة من الثورة . لكن شريف باشا والي الشام استطاع القاء القبض على حسين شبيب وقتله فيما بعد ، في حين تمكن محمد علي من الفرار . أما عسكر الأمير مجيد فقد بقي في جبل عامل وعاث بها مقدار شهرين وهلكت البلاد[٢٤] وتابع الأمير بشير سياسته الحاقدة ضد العامليين بعد ذلك فألقى القبض على بعض زعمائهم ونكّل بآخرين .

لم تمض سنة على اخماد ثورة حسين شبيب ، حتى كانت العوامل والظروف الدولية والاقليمية مهيأة لاحداث انقلاب في موازين القوى . فعام ١٨٤٠ عقد مؤتمر لندن واتخذت فيه قرارات باستعادة سوريا من أيدي المصريين . وتوجه الاتراك بجيشهم براً والانكليز بأسطولهم بحراً إلى بلاد الشام لتنفيذ القرارات .

كان العامليون يراقبون بدقة ما يجري والتحولات الحاصلة ، فلم يقصروا أبداً في استغلال هذه الفرصة الذهبية لاستعادة حكم بلادهم . فأعلنوا الثورة من جديدة وهذه المرة بقيادة الزعيم حمد المحمود الملقب بحمد البيك الذي جمع حوله الرجال . وما إن وصل الجيش التركي في تقدمه داخل سوريا إلى مدينة حلب حتى تحرك حمد البك بفرقته إلى جسر القاقعية على نهر الليطاني حيث التقى بعساكر الأمير مجيد الشهابي المتهيء لغزو جبل عامل . وتمكن حمد البك من صدّه وعزمه وواصل طريقه شمالاً فالتقى بالجيش التركي المتقدم وقائده عزت باشا الذي اثنى على بطولات العامليين ومنح حمداً لقب شيخ المشايخ وعينه حاكماً على جبل عامل .

كان لمساندة الاتراك للعامليين أن قويت عزيمة هؤلاء فلاحقوا فلول الجيش المصري في رميش ووادي الجبس وشفا عمرو ثم في صفد وطبريا والناصرة وأصبح حمد البك سيّد هذه

---

(٢٣) السبتي ٥ / ٢٥ .

(٢٤) المصدر السابق . انظر كذلك : رستم ١٧٢ .

المناطق . وما ان استتب الأمر له حتى ثبته الاتراك في حكم جبل عامل بعد أن أغدقوا عليه العطايا من كل نوع .

بلغت البلاد العاملية مبلغاً عالياً من الازدهار والسمعة أيام حمد البك الذي أعاد اليها الحكم الذاتي وعلى امتداد أكثر من عشر سنوات سبقت وفاة حمد البك وذلك عام ١٨٥٢ .

كان حمد المحمود أول من حمل لقب بك في جبل عامل . كان فارساً مقداماً جعل تبنين عاصمة له بعد أن جدد قلعتها وأعلى بنيان قصره فيها . وحاول تحديث البلاد وإن اقتصر ذلك على الأمور الشكلية . فكان أول من خلع الملابس القديمة وفي مقدمتها العمامة ولبس الطربوش والملابس الاوروبية الحديثة[٢٥] .

وإلى ذلك كان حمد المحمود أديباً شاعراً . فلا غرو أن يقرّب إليه الشعراء . حتى غدا قصره ، بمثابة بلاط يعجّ بالشعراء فواكبوا أعماله وانتصاراته بالقصائد الملحمية . فعند تجديده لحصن تبنين قال شاعر مجهول معاصر[٢٦] :

حصن تبنين رفيع شامخ ... شاده بالعزّ غوث المسلمين
ذاك ناصيف ملاذ الملتجي ... مأمن الخائف غيث المعتفين
وبه نالت فخارا عامل ... ذكره باق لها في الآخرين
ما الذي حل بها من بعده ... ودهاها من فعال الجائرين
جدد اليوم لها الفخر فتى ... عود السيف على قطع الوتين
دارة البدر لقد جدّدها ... حمد القوم لأمن الخائفين
مربعاً للعز قد شاد لنا ... ناصر الاسلام غوث العالمين
يا لها من قلعة « تاريخها ... تبنين برج السعد حصن المؤمنين

ويؤرخ الشاعر الشيخ علي مروة لمواقع حمد المحمود فيكتب[٢٧] :

لم يبغه أحد ينازله ... إلا موارد حتفه وردا
فاسأل (رميشاً) حين باكرها ... بالغارة الشعوا وسل (صفدا)
واسأل بروجا زلزلت وهوت ... من (عكة) لما أن احتشدا
خرّت له في الحال ساجدة ... والسور تعظيماً له سجدا

(٢٥) انظر : عصر حمد المحمود والحياة الشعرية في جبل عامل ، حسن الأمين ، ص ٤٢ .
(٢٦) المصدر السابق ٥٠ .
(٢٧) المصدر السابق ٥٩ .

والنصر وافاه (بناصرة) وانحل ما القاضي بها عقدا
خابت مساعيه ومأمله إذ لم يصب من أمره رشدا
أمست أنوف القوم مرغمة مذ أنجز الاقبال ما وعدا

ويكتب الشاعر حبيب الكاظمي(٢٨)

وطوى البشر الأماني اذ وطا حمد البيك من الظهر السناما
قد شكا السيف الظما حتى ارتوى وانحنى عود القنا حتى استقاما
واطيء الهام احتكم فيها بما تنصف الحكمة في البين احتكاكا
ودع الحكمة تعطي قسمها للظبي هاماً وللتيجان هاما
(برميش) كيف أوطات العدى ضمر الخيل فنكست النظاما
إذ لوى « ميرالوا » عنه اللوا والقوى كالظبي بجنل الاجاما
بفلسطين جيوش حشدت قدت بالحزم لها جيشاً لهاما
وعلى الأردن منك انتفضت ردن الموت هجوماً واقتحاما
كم شفى سيفك قلباً موجعاً في (شفا عمرو) واحييت رماما

بوفاة حمد البيك عام ١٨٥٢ تنطوي صفحة مجيدة من تاريخ جبل عامل الذي ما سكن إلا لعدل وما قرّت له عين إلا لحرية . تلك حقائق وأمثولات حفظها التاريخ لنا ولاحفادنا وليس لنا من فضل سوى إعادة استذكارها .

محمد نور الدين

يجب محاربة الإسلام ، للحيلولة دون وحدة العرب، التي تؤدي إلى قوة العرب لأن قوة العرب تتصاحب دائماً مع قوة الإسلام وعزته وانتشاره .

مورو بيرجر

إذا وجد القائد المناسب ، الذي يتكلم الكلام المناسب عن الإسلام فإنّ من الممكن لهذا الدين أن يظهر كإحدى القوى السياسية العظمى في العالم مرة أخرى .

المستشرق مونتجومري وات

(آذار ١٩٦٨)

(٢٨) المصدر السابق ٧١ / ٧٢ .